٦. قضية الكلمات الأعجمية فى القرآن الكريم (*)
فى
ضوء الدراسة والبحث

لم تكن اللغة العربية قبل نزول القرآن الكريم لغة ضعيفة فى مفرداتها، وتراكيبها، وألفاظها ومعانيها، بل كانت لغة تحمل فى طياتها عناصر الحياة، وقوة التعبير، وجمال الكلمة، ورشاقة الألفاظ، وغزارة المعانى.

أجل، لم تكن اللغة العربية بلغت سن الشيخوخة، يدب فى أوصالها الوهن، ويعتريها الضعف لتلفظ أنفاسها الأخيرة، ولكنها كانت فى طور الشباب، قوية فتية، تسحرك بألفاظها، وتدهشك بمعانيها، وتأخذ بمجامع قلبك، حينما تصغى إليها فى مجالات التعبير المختلفة: شعرا وخطابة، ومحاورة، وأمثالا.

وهذه اللغة التى بلغت القمة فى التعبير عن المعانى المختلفة، المحسوسة أو المعقولة، فى ألفاظ جزلة، وعبارات متآخية، وكلمات عذبة، هذه اللغة نزل بها القرآن الكريم، ليتحدّى من يملكون ناصية هذه اللغة فى مجال فصاحة الكلمة، وبلاغة المعني، وجمال الأسلوب، «فأقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق، وشهدوا على أنفسهم بالنقص إلا من تجاهل منهم وتعامي، واستكبر وتعاشى، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز، ورام ما قد تيقن أنه عليه غير قادر، فأبدى من ضعف عقله ما كان مستورا، ومن عى لسانه ما كان مصونا، فأتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق، والجاهل الأحمق، فقال: والطاحنات طحنا، والعاجنات عجنا، فالخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة» (١).

واستطاعت اللغة العربية أن تستقى من هذه المعجزة الخالدة ما أعانها على التطور

(*) نشر فى مجلة الوعى الإسلامى ـ نوفمبر سنة ١٩٧١.

(١) انظر: مقدمة تفسير الطبرى: ١/ ٦.

العجيب فى صيغها وتراكيبها ومفرداتها، وأساليبها، فبلغت بالقرآن الكريم درجة من الرّقى ليس بعدها درجة.

وقد لفتت هذه المكانة التى وصلت إليها العربية أنظار كثير من المستشرقين المتعصبين منهم وغير المتعصبين، فهذا (آرنست رينان) يقول فى كتابه: (تاريخ اللغات السامية) ما نصه: «من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوّية التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حُلَل من الكمال إلى درجة أنّها لم تتغيّر أى تغيير يذكر حتى أنه لم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة»(١)، وأعجبنى ما كتبه (جون فرن) فى قصة خيالية أشاد فيها بلغة القرآن، ذلك لأنه بنى قصته الخيالية «على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا، أو يدنوا من وسطها، ولما أرادوا العودة إلى ظاهر الأرض بدأ لهم أن يتركوا هنالك أثرا يدل على رحلتهم، فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية، ولما سئل (جول فرن) عن وجه اختياره للغة العربية قال: إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه» (٢).

ولما كانت لغة القرآن الكريم لغة التحدى والإعجاز على هذا المستوى الرفيع من البلاغة والفصاحة، فإنى لا أستطيع أن أقبل ما يدعيه بعض العلماء والرواة من أن القرآن التكريم اشتمل على كلمات أعجمية، ليست عربية الصنع، وقبل أن أعرض رأيي فى هذه القضية أرى أن أبسط آراء العلماء حولها، ليكون القارئ على بينة من أمرها. ثم أختم بحثى برأيى الذى أراه فى هذا الموضوع:

١ ـ أما الكلمات الأجنبية التى ثار حولها الجدل، واحتدم النقاش، فهذا بعض منها:

١ ـ ما ورد بلسان الحبشة: قال الطبرى: حدثنا عنبسة عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص عن أبى موسى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ (٣) قال: الكفلان ـ ضعفان من الأجر بلسان الحبشة.

---

(١) نقل هذا النص من كتاب: «دراسات فى العربية وتاريخها» للشيخ محمد الخضر حسين ص ١٩.

(٢) المرجع السابق نفسه ص١٤.

(٣) الحديد:٢٨.

وعن أبى إسحاق عـن سعيد بن جبير عـن ابن عباس: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ (١) قال: بلسان الحبشة: إذا قام الرجل من الليل، قالوا: نشأ.

= وعن أبى إسحاق عن أبى ميسرة: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ﴾ (٢) سبحى بلسان الحبشة.

وحدثنا حماد بن سـلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عـن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سئل عن قوله: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ (٣) قال: هو بالعربية: الأسـد، وبالفارسية: شار، وبالحبشية قسورة»(٤).

وقال السيوطى فى الاتقان = الأواه = الموقن بلسـان الحبشة. الدري: المضئ: بلسان الحبشة (الجبت): اسم الـشيطان بلسـان الحبشة (٥). وقال الزركـشى فى البـرهان فى علـوم القرآن: المشكاة: الكوة بلسان الحبشة (٦).

٢ـ ما ورد بلسان الفرس:

الأباريق: جمع إبريق: التنور ـ الدينار: السرادق ـ الاستبرق: الزنجبيل.

٣ـ ما ورد باللسان الرومانى:

الرقيم: اللوح، القسطاس: العدل، طفقا: قصدا.

٤ـ ما ورد باللسان العبري:

كيل بعيـر = البعير: الحمار. الأليم ـ المـؤلم. درست = قرأت. هدنا = تبنا. راعـنا = كلمة سب.

الرحمن: ذهب المبرد وثعلب إلى أنه عبراني، وأصله الخاء المعجمة.

---

(١) المزمل: ٦.
(٢) سبأ: ١٠.
(٣) المدثر: ٥١.
(٤) الطبرى جـ١ ص٨.
(٥) الإتقان جـ١ ص١٣٨.
(٦) البرهان فى علوم القرآن ص ٢٨٧، ٢٨٨.

٥ ـ ما ورد باللسان القبطى:

الملة الآخرة = الأولى: والقبط يسمون: الآخرة:الأولى، والأولى: الآخرة. بطائنها = ظواهرها: وراءهم ملك: أمامهم. اليمّ = البحر.

٦ـ السريانية: الطور: جبل.

٧ـ اليونانية: سريا: النهر الصغير.

٨ ـ الزنجية: حصب جهنم: حطب جهنم: وقولوا حطة: صوابا.

٩ـ النبطية: «رهوا: سهلا. سيدها: زوجها بلسان النبط، قال أبو عمرو: لا أعرفها فى لغة العرب.

١٠ـ كلمات مختلف فى نسبتها:

السجل: قيل حبشى، وفى المحتسب لابن جني: فارسى معرب.

السندس: قيل: رقيق الديباج بالفارسية، وقيل الرقيق من الستر بالهندية.

وقد أفرد السيوطى هذه الكلمات الأعجمية بالتصنيف، وسماها (المهذب فيما وقع فى القرآن من المعرب).

١١ـ كلمات أعجمية غير منسوبة [١].

وقد نظم تاج الدين السّبكى منها سبعة وعشرين لفظاً فى أبيات جاء فيها:

السلسبيل، وطه، كورت، بيع ... روم، وطوبى، وسجيل، وكافور
والزنجبيل، ومشكاة سرادق مع ... استبرق، صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيّهم وغسّا ... قٌ دينار والقسطاس مشهور
له مقاليد فردوس يعد كذا ... فيما حكى ابن دريد فيه تنور

(١) انظر فى هذا الموضع: الطبرى جـ ١ ص٦، الإتقان: جـ٢ ص١١٩ طبع دار التراث ، البرهان: ص٢٨٧ و ٢٨٨.

وقد ذيل الحافظ بن حجر على هذه الأبيات، وذيل السيوطى عليها بالباقى وهى بضع وستون، فتمت أكثر من مائة لفظة [١].

ب- أراء العلماء حول هذه الكلمات:

١. رأى من يقول: إنها أعجمية:

يستند هؤلاء فى هذا الرأى إلى ما روى سعيد بن جبير قال: قالت قريش: لولا أنزل هذا القرآن على رجل (أعجميا، وعربيا) فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء﴾[٢] فأنزل الله بعد هذه الآية فى القرآن بكل لسان [٣].

وعن أبى ميسرة قال: فى القرآن من كل لسان» [٤].

ومن العلماء الذين يرون هذا الرأى الإمام (الجوينى)، ففى رأيه أنه لا يستنكر وقوع المعرّب فى القرآن الكريم، بل يرى أن له فائدة فى مجال البلاغة والبيان، قد لا يشعر بها كثير من الناس، لأنها تخفى عليهم بما تشتمل عليه من دقة البيان، وسر الإعجاز. استمع اليه يقول مدافعًا عن كلمة (استبرق) ما نصه: «فإن قيل: إن استبرق ليس بعربى، وغير العربى من الألفاظ دون العربى فى الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم، وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة، ويأتوا بلفظ يقوم مقامها فى الفصاحة لعجزوا عن ذلك. وذلك لأن الله تعالى إذا حث عباده على الطاعة، فإن لم يرغبهم فيها بالوعد الجميل، ويخوفهم بالعذاب الوبيل، لا يكون حثه على وجه الحكمة.. إلى أن يقول:

ثم إن الوعد بما يرغب فيه العقلاء، وذلك منحصر فى أمور: الأماكن الطيبة، ثم المآكل، والمشارب، ثم الملابس الرقيقة، وكان ينبغى أن يذكر من الملابس ما هو أرفعها، وأرفع الملابس فى الدنيا الحرير، ثم إن الثوب من غير الحرير لا يعتبر فيه الوزن والثقل. وربما يكون

---

(١) الاتقان جـ ص١١٩، مفتاح السعادة ص ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤.

(٢) ـ فصلت: ٤٤.

(٣) ـ الطبرى جـ١ ص٨.

(٤) المرجع السابق والصفحة.

الخفيف أرفع من الثقيل الوزن، وأما الحرير فكلما كان ثوبه أثقل كان أرفع، فحينئذ وجب على الفصيح أن يذكر الأثقل الأثمن، ولا يتركه فى الوعد، لئلا يقصر فى الحث والدعاء.

ثم إن هذا الواجب الذكر، إما أن يذكر بلفظ واحد موضوع له صريح، أو لا يذكر بمثل هذا، ولا شك أن الذكر باللفظ الواحد الصريح أولى، لأنه أوجز وأظهر فى الفائدة، وذلك (استبرق)، فإن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ، ويأتى بلفظ آخر لم يمكنه، لأن ما يقوم مقامه، أما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة. ولا يجد العربى لفظا واحداً يدل عليه، لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس، ولم يكن لهم بها عهد، ولا وضع فى اللغة العربية للديباج الثمين اسم، وربّما عرّبوا ما سمعوا من العجم، واستغنوا عن الوضع لقلة وجوده عندهم، وندرة تلفظهم به.

وأما إنْ ذكره بلفظين فأكثر فإنه يكون قد أخل بالبلاغة، لأنه ذكر لفظين بمعنى يمكن ذكره بلفظ ـ تطويلٌ، فعلم بهذا أن لفظ (استبرق) يجب على كل فصيح أن يتكلم به فى موضعه، ولا يجد ما يقوم مقامه [1].

٢.رأى من يقول:إنها عربية:

على رأس هؤلاء الإمام الشافعى رضى الله عنه، فقد أنكر كل الإنكار أن تكون هذه الكلمات أعجمية الصنع، لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين. ولا يمكن أن يصدق العقل، أو يطمئن القلب إلى مثل هذه الروايات، التى تدّعى أعجمية بعض الكلمات، فالقرآن الكريم فى نظر الإمام الشافعى من ألفه إلى يائه عربى فصيح، لم يستعر كلمة من غير لغة العرب، لأنه ليس فى حاجة إليها، بل أحاط بهذه اللغة احاطة كاملة، لأنه من صنع الله، وصنع الله لا يتوقف على معونة فى كلمة أو كلمات، تقدم إليه من مختلف اللغات.

وكان الشافعى صريحا كل الصراحة فى هذا الاتجاه، مؤمنا كل الإيمان بهذا الرأي. لدرجة أنه قدم النصيحة خالصة، حارة ملتهبة لهؤلاء الذين يدعون ما يدعون ليتركوا هذا الانحراف فى الرأى، حتى يسلم لكتاب الله جلاله وسلطانه.

وأنى أترك المجال للشافعى، ليعرض علينا رأيه، معزّزاً بالحجة، مدعما بالبرهان، قال الشافعى فى الرسالة:

---

(١) الاتقان جـ١ ص ١٣٦، ١٣٧.

«فقال منهم قائل: إن في القرآن عربيا وأعجميا» فرد الإمام على هذا الادعاء بقوله: «والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شئ الا بلسان العرب، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي» إلى أن يقول:

فإن قال قائل: ما الحجة في أن كتاب الله محصن بلسان العرب لا يخلطه فيه غيره؟ فالحجة في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾(١) فإن قال قائل: فإن الرسل قبل محمد كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمدا بعث إلى الناس كافة، فقد يحتمل أن يكون بعض بلسان قومه خاصة، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه، وما أطاقوا منه، ويحتمل يكون بعث بألسنتهم، فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟ ويرد الشافعي على هذا الاعتراض بقوله.

فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلابد أن يكون بعضهم تبعا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع.

وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي، ولا يجوز والله أعلم أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله، فعليهم اتباع دينه».

بهذا المنطق القوى رد الشافعي هذا الاعتراض، ولكنه لم يكتف بذلك فوثق هذا الرد بكتاب الله تعالى في وضوح يبدد الباطل، وصراحة تكشف البهتان، فيقول: وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه: قال الله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(٢). وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾(٣) وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(٤) وقال: ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٥) وقال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾(٦).

---

(١) إبراهيم: ٤.
(٢) الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥.
(٣) الرعد: ٣٧.
(٤) الشوري: ٧.
(٥) الزخرف: ١ ـ ٣.
(٦) الزمر: ٢٨

قال الشافعى: فأقام حجته أنه كتاب عربى فى كل آية ذكرناها، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه جل ثناؤه كل لسان غير لسان العرب فى آية من كتابه، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾(٢)، ويختم الشافعى دفاعه عن كتاب الله تبارك وتعالى بهذه النصيحة الغالية فيقول:«فكان تنبيه العامة على أن القرآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحة للمسلمين، والنصيحة لهم فرض لا ينبغى تركه، وإدراك نافلة خير لا يدعها إلا من سفه نفسه، وترك موضع حظه، وكان يجمع مع النصيحة لهم قياما بإيضاح حق، وكان القيام بالحق، ونصيحة المسلمين من طاعة الله، وطاعة الله جامعة للخير»(٣).

بهذا الرد المقنع، وبهذه النصيحة الخالصة دافع الإمام الشافعى عن قضية عروبة هذه الكلمات، دفاعًا حارًا، لزم فيه المنطق القوي، والحجة البالغة والدليل القرآنى القاطع.

وإنى حرصت كل الحرص على تسجيل عبارات الشافعى بنصها فى هذا المجال، لأنها تحمل من حرارة الدفاع عن كتاب الله أكثر مما تحمل عباراتي.

وفى هذا الخط الذى رسمه الشافعى اتجه الإمام الطبرى فى تفسيره هذا الاتجاه وكأنه بآرائه التى بسطها فى هذهالقضية يضع الدلائل الواضحة على صحة رأى الشافعى، ذلك لأنه يرى أن هذه الكلمات الأعجمية، اتفقت بألفاظها ومعانيها مع الكلمات العربية، فليس من المنطق أن نقول: إنها غير عربية بل هى عربية أعجمية: يقول الطبري: «ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما تتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة الألسن بمعنى واحد، فكيف بمعنيين معا؟ ويقول أيضا، كما قد وجدنا اتفاق كثير منهم فيما قد علمناه من الألسن المختلفة. وذلك كالدرهم، والدينار، والدواة والقلم والقرطاس وغير ذلك مما يتعب إحصاؤه، ويمل تعداده.

(١) النحل:١٠٣.
(٢) فصلت:٤٤
(٣) الرسالة:٥٠.

على أن الطبرى لم ينكر هذه الآثار المروية عن ابن عباس، أو عن سعيد بن جبير، بل يقرر صحتها من وجه آخر، غير ما يدعيه هؤلاء الذين يقررون أنها أعجمية فيقول: «فلو أن قائلا قال فيما ذكرناه من الأشياء التى عددنا، وأخبرنا اتفاقه فى اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية، وما أشبه ذلك عما سكتنا عن ذكره، ذلك كله عربى لا فارسى، أو قال: بعضه عربي، وبعضه فارسي، أو قال: كان مخرج أصله عند العرب، فوقع إلى العجم فنطقوا به، أو قال: كان مخرج أصله عند الفرس، فوقع إلى العرب فأعربته ـ كان مستجهلاً إلى أن يقول: بل الصواب فى ذلك عندنا أن يسمى عربيا أعجمياً، أو حبشيا عربيا إذا كانت الأمتان له مستعملتين إلى أن يقول: «وذلك هو معنى ما روينا عنه القول فى الأحرف التى مضت فى صدر هذا الباب من نسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الحبشة، ونسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الروم، لأن من نسب شيئا من ذلك إلى ما نسبه إليه لم ينف بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه أن يكون عربيا»(١).

وتتفق وجهة نظر أبى عبيدة معمر بن المثنى مع الإمام الشافعى والطبري، فيقول: «نزل القرآن بلسان عربى مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية، فقد أعظم القول، ومن زعم أن (طه) بالنبطية فقد أكبر، وقد يوافق اللفظ اللفظ، ويقاربه، ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية، والآخر بالفارسية أو غيرها» (٢).

ومع أن أبا عبيدة دافع عن عروبة هذه الكلمات إلا أن الإمام اللغوى الزبيدى صاحب تاج العروس ينسب إلى أبى عبيدة رأيا آخر يوفق بين المانعين والمجوّزين يقول: «قال أبو عبيدة: والصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعا وذلك أن هذه الحروف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء إلا أنها سقطت إلى العرب فأعربتها بألسنتها، وحولتها من ألفاظ العجم إلى ألفاظها، ثم لما نزل القرآن، وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية، فهو صادق، ومن قال: عجمية فهو صادق»(٣).

(١) الطبرى جـ١ ص ٩.
(٢) مجاز القرآن جـ ١ ص ١٨.
(٣) تاج العروس ص ٩.

جـ: رأى ومناقشة:

فى رأبى أننا إذا أردنا أن نصل إلى حل حاسم لهذا الإشكال، فإنه لا بد من الرجوع إلى التاريخ العربى لنستفتيه فى هذه القضية التى كثر فيها الجدل، واحتدم النزاع بين العلماء.

أننا إذا رجعنا إلى التاريخ ليدلنا على كلمة (عرب) فماذا نجد؟ نجد اختلافا كبيرا بين رجال اللغة من العرب فى مدلول هذه الكلمة، فقد قال ابن منظور فى كتابه الكبير: لسان العرب ما نصه: «واختلف الناس فى العرب لم سموا عربا؟ فقال بعضهم أول ما أنطق الله لسانه بلغة العرب يَعْرُب بن قحطان، وهو أبو اليمن كلهم، وهم العرب العاربة، ونشأ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام معهم، فتكلم بلسانهم، فهو وأولاده العرب المستعربة.

وقيل: إن أولاد إسماعيل نشئوا بعربة، وهى من تهامة، فنسبوا إلى بلادهم.

ثم قال صاحب اللسان، وكل من سكن بلاد العرب، وجزيرتها ونطق بلسان أهلها فهم عرب، يمنيّهم، ومعدهم (١).

والمستشرقون وعلى راسهم المستشرق (ولفنسون) فى كتابه (تاريخ اللغات السامية): يرى أن كلمة (عرب) كانت مستعملة فى اللغة العبرية القديمة لتدل على أهل العربة (الصحراء) أى لنوع خاص من قبائل الجزيرة العربية (٢).

ويرى هذا المستشرق أن ما يقال فى المعاجم اللغوية العربية من أن هناك فرقا بين كلمتى عربى وأعرابي، وتخصيص الأولى بسكان المدن، والثانية بسكان البادية فلم يحدث الا فى عصور قريبة من ظهور الإسلام أما قبل ذلك فلم يكن هناك فرق مطلقا، بل كان كل من الكلمتين يدل على سكان البادية فحسب، أما سكان المدن والأمصار، فكانوا ينسبون إلى قبائلهم، ويعرفون بمناطقهم (٣).

---

(١) لسان العرب: مادة: عرب.

(٢) تاريخ اللغات السامية: ص ١٦٤.

(٣) المرجع نفسه والصفحة.

ويرى مرة أخرى أن كلمة عبرى تؤدى المعنى الذى تؤديه كلمة عربى نفسها، أى أن العبريين هم قبائل رحل كانت تنتقل بخيامها، وإبلها من مكان إلى آخر.

وقد استدل على هذه النظرية بأن كلمة عبرى مشتقة من الثلاثى عبر الذى معناه بالعبرية والعربية: ذهب، ورحل وقطع مرحلة من الطريق، أى أن كلمتى عبرى وعربى مُشْتَقّتان من ثلاثى واحد هو عبر، فحدث قلب مكانى فى هذه الكلمة الثلاثيّة فصارت عرباً» (١).

وفى رأيى أن المعاجم اللغوية تحدثت عن هذه التفرقة فعلا، ولكنها مع ذلك نصت أيضا على أن كل من سكن بلاد العرب، وجزيرتها، ونطق بلسان أهلها فهم عرب، يمنيّهُم، ومعدّهم كما قدمت.

وأما القرن الذى ظهرت فيه هذه الكلمة، فقد حددته النقوش والآثار التى اكتشفت فى عصرنا الحديث، فقد أشار المستشرق لوبون فى كتابه (حضارة العرب) إلى آثار الأشوريين التى تحدثت عن العرب فقال: «وذكر العرب قبل الميلاد بتسعمائة سنة فى بلاغ (سلما نصر الثاني) وأدت ملكتان عربيتان فروض الطاعة (تيفلا نفانصر) قبل الميلاد بنحو ثمانمائة سنة، واستعان (بانيبال) بجيوش عربية عندما رفع راية العصيان» (٢).

ويقسم المؤرخون العرب إلى قسمين: بائدة، وباقية. ومن العرب البائدة. عاد، ومسكنهم الأحقاف فى اليمن، وثمود، ومسكنهم الحجر فى جهة معان، ومدائن صالح، وطسم، ومسكنهم اليمامة، وعمليق، ومساكنهم عمان، والحجاز وتهامة، وبعض نجد، وتيماء وبترا، وفلسطين، وهم القوم الجبارون الذين تهيبهم قوم موسى إذ قالوا: «إن فيها قوما جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها».

ومنهم جالوت الذى قاتل داود، فقتله داود عليه السلام، وجرهم ومسكنهم باليمن، ومن بقاياهم قوم هاجروا إلى مكة، وهم أصهار إسماعيل عليه السلام ثم بادوا،، ووبار.. ومسكنهم اليمن فى وبار المسماة باسمهم، وقد هلكوا.

والعرب الباقية: أولاد قحطان، وأولاد عدنان (٣).

---

(١) المرجع نفسه ص ١٦٥.
(٢) حصارة العرب ص ٩١.
(٣) تاريخ الأدب لحفنى ناصف ٨.

وليس ثمة شك فى أن هذه القبائل العربية كانت تتكلم بلغة واضحة المعالم بينة السمات، هذه اللغة هى العربية، والعربية من أقدم اللغات السامية كما نصّتْ على ذلك كتب العبريين، بل إن العرب أنفسهم أقدم من العبريين فى تاريخ وجودهم على هذه الأرض، ومازالت كتبهم تقص علينا الشيء الكثير من أخبار العمالقة، وأهل سبأ الذين كانوا يقيمون بجنوب جزيرة العرب.

على أن هذه القبائل العربية لم تغلق على نفسها أبواب مساكنها، بل اختلطت اختلاطا شديدا بغيرها من أجناس الأمم، اختلطوا بالمصريين حينما اتحدت قبائل من العمالقة مع عرب سوريا، واستولوا على مصر فى حملة معروفة فى التاريخ المصرى القديم بحملة الهكسوس سنة ٢٠٠٠ق. م وعرفوا بالرعاة، ودام سلطانهم قرونا كثيرة [١].

وتنص الكتابات المسمارية على أن قبائل ثمود التى كانت تقيم فى بلاد الحجاز اشتبكت فى معارك طاحنة مع سرجون ملك آشور الذى مزقهم كل ممزق، وأجلى البطون الثمودية الثائرة فى بلاد العرب إلى مدينة غزة بفلسطين [٢].

وقدماء اللحيانيين الذين كانوا يقيمون فى الحجاز عرفوا بالقوة والعظمة حتى كان الرومان يستأجرون منهم الجنود والعساكر [٣].

لا شك أن هذا الاختلاط الذى حدث بين العرب وغيرهم فى تاريخهم القديم أدى إلى التفاعل اللغوي، مما جعل اللغة تتطور فى قوة حتى اكتمل بناؤها واتّسعت مفرداتها بفعل هذا الاحتكاك.

ولا أدل على ذلك من اعتراف المستشرقين أنفسهم بهذه الظاهرة فقد قال (ليفنسون): «إن اللغةالعربية تشتمل على عناصر تدل على أنها بصورتها الحالية، ليست أصلية قديمة، بل إنها صيغ مرت عليها تقلبات كثيرة وتغيرات فى حين أن هذه الكلمات توجد فى العبرية أو

---

(١) حضارة العرب ص ٩٠.

(٢) حضارة العرب ١٧٤.

(٣) المرجع نفسه ص ١٧٤.

الآرامية دون أن يظهر عليها شيء من آثار هذا التبديل، فمثلا كلمة (قول) تؤدى بالعبرية معنى = صوت. أما فى العربية فلا تطلق إلا على جملة أصوات مجتمعة، وكذلك (أمر) تدل على الكلام العادي، وتدل فى العربية على الطلب بشدة [1].

وقد استطاعت العربية بما تحمل من عناصر الحياة والتطور أن تؤثر ـ كما تقول روايات المستشرقين أنفسهم ـ (فى النبط الآراميين) فكان ذلك من أهم الأسباب التى حملتهم على نسيان لغتهم الآرامية، وإيجادهم لأنفسهم مزيجا من لغة الآراميين والعرب، ولم يكن هذا المزيج مفهوما عند العرب فأطلقوا عليه الرطانة النبطية [2].

من هذا العرض السابق أستطيع إن أقول: أن هذه اللغة العربية لغة قديمة نكونت بمرور الزمن، وعبر التاريخ، وسارت فى طريق التطور بخطى واسعة حتى وصلت إلى ما قبل الإسلام إلى الذروة من التقدم والرقي، على حين تجمدت اللغات السامية الأخري، لتصبح أثرا بعد عين.

ومن المنطق أن أقول: أن لغة احتكت بغيرها من اللغات الأخري، فأثرت فيها، ووصلت إلى هذه الدرجة من التطور لابد أن تكون موردا لغيرها من اللغات الأخري، تمدها بما تحتاج إليه من مفرداتها الواسعة، وبمرور الزمن أصبحت هذه المفردات العربية لبنات فى بناء لغات هذه الأمم، ولا يصح فى مجال التفكير السليم أن نقول: إن القرآن الكريم استعارها من هذه اللغات، إذا قلنا ذلك، فهذا تحكم لا تسنده إلا هذه الأخبار التى ذكرها الرواة، وهى أخبار واهية تتعارض مع صريح القرآن الكريم حينما يقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[3].

ومن العجب حقا أن ندعى أن مفردات اللغة العربية التى عاشت هذا العمر الطويل وتطورت هذا التطور الكبير عبر التاريخ، وعبر الأجيال. تمثلها هذه المعاجم اللغوية، أو هذه الروايات التى جمعها لنا رواة العرب حينما بدءوا بدوّنون اللغة.

---

(١) تاريخ اللغات السامية ١٦٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٧٣.

(٣) يوسف:٢.

أجل لقد أحس بهذه الحقيقة راوية من كبار الرواة، وعمد من عمداء اللغة، إنه أبو عمرو ابن العلاء الذى يقول: «ما انتهى إليكم مما قالته العرب الا أقله ولو جاءكم لجاءكم علم وافر، وشعر كثير» (١).

على أن العقل لا يمكن أن يسلم بأعجمية هـذه الكلمات من ناحية أخري، فهذه الكلمات كمايـقول السيوطـي: أكثر من مـائة لفظة، وهـو عدد قليل جـدا بالنسـبة إلى كلمـات القرآن الكريم التى تبلغ فـى رواية الفضيل بن شاذان عن عطاء بن يسارٍ: سبـع وسبعون ألف كلمة، وأربعمائة وسبع وثلاثون كلمة (٢).

فما السر أذا فى أن يمد القرآن الكريم يده لأخذ هذه الكلمات المائة من لغات العجم. هل اللغةالعربية فقيرة إلى هذا الحد، فتطلب المعونة بهذه الكلمات، كيف ذلك؟ وهى اللغة التى لا تسـتطيع أن تجـاريها لـغة أخرى فـى مجال الاتسـاع، كيف ذلـك؟ وهى اللـغة التى تحـفظ للمعنى الواحد المئين من الألفاظ.

استمع إلى السيوطى يقول فى المزهر: «إن العجم لا تعرف للأسد أسماء عير اسم واحد، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم.

وقال حدثـنى أحمد بن مـحمد بن بـندار قال: سمعـت أبا عبدالله بن خـالويه الهـمذانى يقول: جمعت للأسد خمسمائة اسم، وللحية مائتين.

ويروى ابن فارس قصة الأصمعى والرشيد، وخلاصتها. «أن الرشيد سأل الأصمعى عن شعر لابن حزام العكلي، ففسره، قال: يا أصمعي، إن الغريب عندك لغير غريب، قال: يا أمير المومنين، ألا أكون كذلك، وقد حفظت للحجر سبعين اسما؟ (٣).

ويجدر بى أن أعزز رأيى هذا بـرأيين لرجلين من أعلام الفكر فى العالم الـعربى فى وقتنا الحاضر، وهما الموحومان الدكتور عبدالوهاب عزام، والشيخ أحمد شاكر.

---

(١) الاقتراح: ٢٧.

(٢) البرهان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٤٩.

(٣) المزهر جـ ١ ص ٣٢٥.

أما الدكتور عزام فيرى: أن اللغات السامية وجاراتها تبادلت ألفاظا فى عصور متطاولة قبل الإسلام، فدخل فى الفارسية مثلا ألفاظ سامية، فرب لفظ فارسى يظن أصلا للفظ عربى هو فى الحقيقة لفظ سامى تسرب إلى الفارسية فى العصور القديمة، وقد بعد بالباحثين عن الصواب ظنهم أن العربية لم تهب اللغات الأخرى من ألفاظها إلا فى العصور الإسلامية(١).

وأما المرحوم الشيخ أحمد شاكر، فيرى: أن العرب أمة من أقدم الأمم، ولغتها من أقدم اللغات وجودا، كانت قبل إبراهيم وإسماعيل، وقبل الكلدانية والعبرية والسريانية وغيرها، بله الفارسية، وقد ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ، فلعل الألفاظ القرآنية التى يظن أن أصلها ليس من لسان العرب، ولا يعرف مصدر اشتقاقها لعلها من بعض ما فقد أصله (٢).

وبعد، فلعلى بهذا العرض لهذه القضية استطعت أن أضع النقاط على الحروف دفاعا عن كتاب الله العربي، هذا من ناحية، ولعلى من ناحية أخرى أسد الباب أمام هولاء اللغويين المحدثين الذين يدعون أن القرآن الكريم سار على منهج التعريب، حينما أخذ عن الفارسية والحبشية وغيرهما.

ونحن نلجأ إلى التعريب، لأننا لم نعش فى أعماق اللغة، لنستخرج الكلمة الدالة، واللفظة المعبرة، وذلك لعجزنا عن الإحاطة باللغة من ناحية، ولإيثار مد اللغة العربية بكلمات جديدة سيرا على مبدأ التطور اللغوى من ناحية أخرى إن صح لنا أن نعرب الوف الكلمات الوافدة فى عصر تقاربت فيه اللغات، وتمازجت الأفكار، فانه لا يصح مطلقا أن نتخذ من القرآن ذريعة نعتمد عليها فى شرعية هذا الغزو الأجنبي، فإنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

* * *

(١) مقدمة المعرب للجواليقي: ص ٤.

(٢) من مقدمة الشيخ شاكر ص ١٣.

مصادر البحث ومراجعه

١ـ الإتقان فى علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطى ـ طبعة ثالثة ـ مطبعة الحلبى. وطبعة دار التراث

٢ـ الاقتراح: جلال الدين السيوطى ـ طبع الهند.

٣ـ البرهان فى علوم القرآن للزركشى ـ تحقيق محمد أبى الفضل ـ مطبعة عيسى الحلبى.

٤ـ تاج العروس للزبيدى ـ المطبعة الوهبية.

٥ ـ تاريخ الأدب حفنى ناصف ـ مطبعة جامعة القاهرة ـ طبعة ثانية.

٦ـ تاريخ اللغات السامية الدكتور إسرائيل ولفنسون ـ طبعة أولى ١٣٤٨هـ القاهرة.

٧ـ تفسير الطبرى ـ المطبعة الميمنيّة.

٨ ـ حضارة العرب ـ الدكتور نموستاف لوبون ـ ترجمة عادل زعيتر طبع دار إحياء الكتب العربية.

٩ـ دراسات فى العربية: الشيخ محمد الخضر حسين.

١٠ـ الرسالة للإمام الشافعى تحقيق الشيخ أحمد شاكر ـ طبعة أولى سنة ١٩٤٠.

١١ـ لسان العرب لابن منظور ـ عدة طبعات.

١٢ـ مجاز القرآن لأبى عبيدة ـ تحقيق محمد فؤاد سزكين ـ طبع مؤسسة الرسالة.

١٣ـ المزهر ـ جلال الدين السيوطى ـ مطبعة السعادة.

١٤ـ المعرّب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم لأبى منصور الجواليقى.

١٥ـ مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ـ دائرة المعارف النظامية ـ الهند.

* * *